

(100) ويقولون لكف الانسان الى معصمه يد
واليد اسم جامع للاصابع والكف والذراع والمفرد
(ص 301) .

ومن هذه الامثلة المائة يتضح أن عامية المغرب
اقرب الى الفصحى من عامية الاندلس : واحد وثلاثين
في المائة (حيث أن 31 كلمة مشتركة من بين مائة تتخذ
في المغرب بنية عربية فصيحة في حين أن المائة كلمة
الاندلسية كلها بعيدة عن الفصحى)

(97) ويقولون لجمع الماء مياة بالتاء ..
والصواب أمواه للجمع الاقل ومياه للكثير (ص 298) .
(مياه في المغرب) .

(98) ويقولون امرأة نفيسة .. والصواب نفساء
(ص 298) .

(99) ويقولون لبيت الطعام هري (بكسر الراء)
.. والصواب هري (بتسكينها) (ص 299) .

مَسْرُورَاتُ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ

الدكتورة عائشة عبد الرحمن « بنت الشاطئ » القاهرة

فيما اشتغل به على المدى الطويل من دراسة البيان القرآني ، أدركت أننا سنظل محجوبين عن أسرار لغتنا ، إذا لم نعد فنجتليها في القرآن الكريم ، معجزة النبي العربي ، وكتاب العربية الأكبر .

وذكرت أننا مضينا على أن نختار لابنائنا النماذج العليا من دواوين الشعراء ونثر الكتاب . وتخصي دراستهم للعربية وأدبها ، بمعزل عن هذا الكتاب المحكم المبين ، الذي يجلو ذوتها الأصل المرهف ، في ذروة نغائه وأعجاز بيانه .

وإذ أخضع في مهمل لبیان القرآن ودلالات الفاظه ، للمنهج الدقيق الذي تلعبته من « استاذنا أمين الخولي » في استقراء الاستعمال القرآني لكل لفظ أو عبارة ، وتدبر سياقاتها الخاص في الآية والسورة ، والسباق العام في الكتاب كله ، بدأ لي بعد طول التدبر والتأمل ، أنه حيثما يحشد المسرون مدة الفاظ في تفسير لفظ قرآني ، يبيِّنني أن أضغ لفظاً منها في موضع اللفظ الذي نزل به الكتاب المحكم ، دون أن يضيغ سر الكلمة .

وما من هرف تألوله زائداً أو قدره محذوفاً ، يمكن أن تقوم العبارة على التاويل بزيادته أو حذفه .

ولفتني هذا إلى أسرار للعربية احتجبت منا ، لطول ما اختلطت الدلالة القرآنية بالدلالات المجبية ، ولطول ما احتكمت قواعد الصنعة الأعرابية والمنطق البلاغي المدرسي ، في توجيه النص الأعلى الذي ينبغي أن تعرض عليه كل قواعد النحاة واللغويين والبلاغيين .

ولا يتسع المجال المحدود هنا لعرض كل ما اجتليت من هذه الأسرار التي حجبت منا ، وإنما حسبني أن أقدم منها المثل والشاهد ، في سر البيان في الحرف لا يفتني منه سواه وفي الكلمة لا يقوم مقامها غيرها من حشد الالفاظ المقول بترادفها ، وفي التعبير يتهدى كل محاولة لتاويله على غير ما جاء به في البيان المعجز :

« لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدماً من خشية الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » .

سر الحرف

ما من حرف في القرآن الكريم ،
تأولوه زائدا أو قدروه محذوفا أو
فسروه بحرف آخر ، إلا ويتحدى
بسرّه اللباني كل محاولة لتأويله
على غير الوجه الذي جاء به في
البيان الممجز .

*

من سر الحرف ، أتمد هنا شواهد من حروف
قرآنية ، مفردة ومركبة ، حاول المفسرون في تأويلها
أن يعدلوا بها على وجه التقدير والتأويل ، عن نظمها
الذي جاءت به في البيان الأعلى ، لكي تلبى مقتضيات
الصنعة الاعرابية أو أحكام الصنعة البلاغية .

وبقيت هذه الحروف ، تتحدى كل محاولة لتغيير
أو تقدير بحذف وزيادة .

ولناخذ مثلا ، حرف الباء في مثل قوله تعالى :
« وما ربك بغافل عما تعملون »
« لست عليهم بمسيطر »

جرى النحاة والمفسرون على القول بأن هذه
الباء زائدة في خبر « ما » و « ليس » لا يمتنون بزيادتها أنها
جاءت عبثا أو لغوا ، وإنما هي عندهم زائدة للتأكيد .

وتد جاء « ابن هشام » بهذه الباء الزائدة في
الخبر ، مع خمسة مواضع أخرى لزيادة الباء .
وأدرجها جميعا تحت حكم عام ، هو معنى التأكيد
المستفاد من الباء الزائدة (1) .

ومع قولهم أن هذه الباء الزائدة في الخبر ،
للتأكيد ، جرت الصنعة الاعرابية على تصر عملها على
الشكل لا المعنى . فهي تعمل في ظاهر لفظ الخبر
ويبقى الحكم الاعرابي على أصله ، منصوبا بفتحة
مقدرة على آخر الخبر ، منع من ظهورها اشتغال
المحل بحركة حرف الجر الزائد .

ونردد نحن هذا الحكم التقليدي جيلا بعد جيل .
ويتلقاه الطلاب جميعا تلقينا لا يملكون إلا أن يحفظوه .

دون أن نتردد في قبول القول بزيادة الباء وتد
صار من القولات البديهية التي نقولها على وجه
الضرورة والالزام .

وباستتراء ما في القرآن من خبر « ما ، وليس »
تلقنا ظاهرة مجيء هذه الباء المقول بزيادتها ، في
خبرها المفرد الصريح غير المؤول .

فخبر ليس ، تلزمه الباء في ثلاث وعشرين آية ،
ولا تتخلف إلا في ثلاث آيات نعرض لها بعد حين .

وخبر « ما » النافية تلزمه الباء أيضا ، لا تتخلف
فيها أذكر إلا في بعض آيات لها سياقتها الخاص نتدبره
بعد حين في موضعه .

وإنما يطرد استغناء الخبر عن الباء ، إذا كانت
« ما » النافية ، متلوة بالفعل كان ، فينصب الخبر به
صريحا مفردا غير مقترن بالباء ، في مثل آيات :
البقرة 16 :

« وما كانوا مهتدين »

ومعها آيتا : الانعام 144 ، يونس 45
آل عمران 67 :

« ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا »

الاعراف 7 :

« فلننقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين »
الأنفال 33

« وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون »
الاسراء 15 :

« وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »
الاسراء 20 :

« وما كان عطاء ربك محظورا »
يوسف 111 :

« ما كان حديثا يفترى »
الكهف 51 :

« وما كنت متخذ المضلين عضدا »
مريم 64 :

« وما كان ربك نسيا »
الشمراء 8 :

« وما كان أكثرهم مؤمنين »

+ 67 ، 103 ، 121 ، 139 ، 158 ، 174 ،
190 .

(1) معنى اللبيب : ج 1 من 91 ، الجمالية بالقاهرة 1329 .

الشعراء 209 :
كما تحتل تأكيد النبي في بعض الآيات ، تحتل نقض
النبي في آيات أخرى .

فاننظر اذن في كل الآيات التي يقترن خبر (ما
وليس) فيها بالباء ، مقارنة بالآيات التي أستغنى
الخبر عن الباء ، لعل الاستقراء يهديننا الى خطة
بيانية من أسرار العربية .

ونبدأ بخبر « ما » غير المتلوة بالفعل كان ،
فمراها قد لزمته اطرادا في آيات :

البقرة 8 :

« ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر
وما هم بمؤمنين » .

البقرة 74 :

« وما الله بغافل عما تعملون » —
« يعملون » معها آيات : البقرة 85 ، 140 ،
144 ، 149 ، وآل عمران 99 .

الانعام 132 :

« وما ربك بغافل عما يعملون » — تعملون
— معها آيات : هود 123 ، النمل 93 .

الانعام 107 :

« وما جملناك عليهم حيننا وما انت عليهم
بوكيل » معها : الشورى 6 .

البقرة 96 :

« يود احدكم لو يامر الف سنة وما هو
بمزهزجه من العذاب ان يامر »

البقرة 102 :

« وما هم بضارين به من احد الا باذن الله .

ق 29 :

« ما يبذل القول لدي وما انا بغلام للمبيد »
معها : فصلت 46 .

البقرة 167 :

« كذلك يريهم الله اعمالهم حسرات عليهم وما
هم بخارجين من النار »

الشعراء 209 :

« ذكرى وما كنا ظالمين »

النمل 32 :

« ما كنت تاطعة امرا حتى تشهدون »

القصص 45 :

« وما كنت ثاويا في اهل مدين »

القصص 59 :

« وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في امها
رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى الا
واهلها ظالمون »

الاحزاب 40 :

« ما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول
الله » .

الانعام 33 :

« الا ان قالوا والله ربنا ما كنا مشركين » .

والنفي بـ « ما » في مثل هذا الاسلوب ، لا
يتجه الى الخبر مباشرة ، بل يتسلط على الجملة من
(كان) واسمها وخبرها .

*

اما حين يكون الخبر المفرد الصريح لما ، فالباء
تلزمه ، لم تتخلف الا في آية المجادلة :

« ما هن امهاتهم » وآية يوسف : « ما هذا
بشيرا » .

وامام هذه الظاهرة الاسلوبية من غلبة اقتران
خبر « ما وليس » بالباء ، لا يهون القول بانها حرف
رائد ، اذ ان مقتضى القول بزيادتها ، امكان الاستغناء
منها ، وهو ما لا يورث اليه البيان الاعلى .

والمسرون مع النحاة في أن هذه الباء زائدة
للتأكيد (1) .

وفي منهجنا ، لا تؤخذ الباء في آية من الآيات ،
بمعزل عن نظائرها في القرآن كله ، وقد نرى أن الباء

(1) الزمخشري : الكشاف ، ج 4 سورة القلم